رحلة الى قنّوبين

في جبل لبنان

سنة ١٧٢١

بعث بها الاب پتيكوه المرسل اليسوعي الى الاب فلوريو

نقلها عن الافرنسية

القس انطونيوس شبلي اللبناني

رئيس معاملة جبيل والبترون (*)

توطئة

حال كثيرٌ من السيّاح الاوربيين في لبنان في ما سلف من العصور ؛ ودوّنوا تفاصيل سياحاتهم ، واسهبوا في كلامهم عن أرضه وسمائه ومائه وهوائه وارزه وغاباته وعاداته واديانه ، منهم الشاليه درفيو ، ودي لاروك ، ولامرتين ، وميسلن ، والاباء اليسوعيّون دنديني ، وفروماج ، وپتيكوه ، وغودار ، وغيرهم كثيرون . وقد اتى كلٌّ منهم على وصف ما رآهُ وتحققه بنفسه وما كان له من التأثير على عقله ، من مناظر جبالٍ ووهاد وغياض ورياض وكهوفٍ محفورة في صخور لبنان الصمّاء ،

(*) صاحب هذه الرحلة الاب بطرس فرنسوا پتيكوه (Petitqueux) ، ولد في نوايون (فرنسة) في ٢٤ ايار ١٦٨٣ ، ودخل الرهبنة اليسوعية في ٤ تشرين الاول ١٧٠٣ . وقدم رسلًا الى سورية سنة ١٧١٩ . وفي سنة ١٧٢٦ تراه في دمشق ، وفي سنة ١٧٣٦ في حلب حيث توفي في ٣٠ آب ١٧٣٧ . وقد ترك رسالة نُشرت في مجموعة الوثائق للاراسليات اليسوعية في الشرق (*Nouveaux mémoires des Missions de la Compagnie de Jésus dans le Levant, IX, 1724*) ، وهي الرسالة التي عرّبها حضرة القس انطونيوس شبلي . اما رسائله الاب فلوريو (Fleuriau) فكان في باريس يقوم بمهمّة وكيل المصروف للاراسليات سورية. (المشرق)

ومناسك واديار مطبّقة كالمصابيح على اكتاف جباله واوديته ، الى غير ذلك من المشاهد الساحرة الفاتنة التي ارتسمت روعتها وجلالها في نفوس هؤلاء السيّاح فاملت على أقلامهم ابلغ العبارات وادقّ التصورات والتخيلات.

وقد درسوا وحلّلوا نفسيّة الشعب اللبناني ، واطّلعوا على اطواره ، وكتبوا فيها فصولاً طليّة شائقة تميط اللثام عن وجه عصور غبرت فتبدو للذهن بحقيقتها ووضيئها .

على انّ هذه الكتابات لا يخلو بعضها من التطرّف ، اذ انها تحتاج الى مزيد دقّة في البحث تنزيهاً لها عن مطايب ميول واهواء غلبت على اصحابها فشوّهت محاسن كتاباتهم .

وها انّ الاب بتيكوه اليسوعي يبسط لنا في سياحته الى لبنان ما راقه من مشاهد هذا الجبل الساحرة الالباب كمناظر أرزه وصخوره ومرتفعاته واديارة . وهو يعرض على الابصار صورةً جميلةً لحياة اللبنانيين القدماء الذين اعتصموا في جبلهم الاشمّ متحرّزين لصدّ هجمات الطوارئ ، عاكفين على تنسم فروض دينهم ، عائشين عيشةً فقريّةً تسودها روح القناعة والبساطة والطهارة المسيحية الحقّة . وقد بسط كلّ ذلك بعبارةٍ رشيقة موجزة تشوّقُ الى مطالعة سياحته التي عرّبنا قسماً منها ونشرناه على صفحات هذه المجلّة الشرقية التاريخيّة اللامعة ، على أملٍ ان نعود الى تعريب القسم الآخر . ولا يبرح ذهن القارئ ان الاب بتيكوه بعث برحلته هذه الى الاب فلوريو إجابةً لطلبه واليك كلامه :

الرحلة

القيام من طرابلس – عرجس – عنطورين – زوبعة هائلة – دير مار سركيس – ارز لبنان – وصف اشجاره – سهل البقاع – دير مار البشع – النهر المقدّس – مغاور الجبباء – عبدالله والحليّون – عوائدهم الرهبانية – دير قنّوبين – بطريركه – معبد الغدية مارينا – سيرتها – دير القديس انطونيوس – المطران عبدالله – حياة رهبانه الصالحة – الرجوع الى عرجس فطرابلس.

١

طلبت مني ابتِ المحترم ، تفصيل سياحتي الى لبنان . وها انا اتشرّف

بارسالها اليك ، وان كان بعض مرسلينا قبلي كتبوا في هذا الموضوع ولم يتأخروا عن بسط تفاصيل مثل هذه السياحات . لكنهم قد يكونون سهوا ، في ما كتبوا اليك ، عن تسطير بعض امور تراها في سياحتي ولم ترها في سياحاتهم . واني لعالمٌ انَّ استحقاقي عندك يقوم بطاعتي لك.

سافرتُ والاب بونامور (Bonamour) من طرابلس ، في ١٣ تشرين الاول سنة ١٧٢١ ، يرافقنا ثلاثة هداة موارنة من جبل لبنان . ثم مشينا مطّ اربعة ايام ، فبلغنا عرجس ، القرية الصغيرة في سفح جبل لبنان الشمالي، تبعد عن الارز مسافة ستّ ساعات . وبالرغم من جدنا في المسير ، لم نصل الى هذه القريةِ إلا الساعة العاشرة ليلًا على ضوء القمر . واضطررنا ان نقضي ما بقي من الليل في كوخ قصبٍ حقيرٍ بتنا فيه الى ما قبل الصباح نتألم من البرد القارس.

قمنا من عرجس قبل الفجر بساعتين يسير بنا هداتنا على مهل في طرقات صعبة المسالك .

ومررنا في طريقنا بقريةٍ صغيرة تسمّى عينطورين ، فرآنا شيخها فخفّ الى ملاقاتنا ودعانا لتناول الغداء عنده . ويا ليتنا أجبنا دعوته ، لاننا ما ابتعدنا عن عينطورين نحو نصف ساعةٍ ، حتى امطرتنا السماء هطّالًا من المطر والبرد والصواعق ؛ واستمرَّ ذلك نحو ساعتين لا ينقطع للشتاء خيط. وامسينا كالغرقى حائرين باثرين لا نجد لنا مأوى ولا معين.

فانحدرت اثوابنا وغصنا بالوحل للركب ، وكدنا نغرق ببرك الماء . وما كان من هذا الماء كالانهار حيث نحن ، كان ثلجاً على مناكب الجبال المجاورة. واخيرًا بعد شقّ النفس وعرق القربة ، وصلنا دير مار سركيس للاباء الكرمليين المحترمين [1] . فتسابقوا الى مساعدتنا ، وكانت مساعدتهم في حينها ، لاننا لقينا منهم كلَّ ما يلائم تلك التعاسة التي كنا بها . فاسترحنا عندهم الى اليوم الخامس عشر . وديرهم هذا قائمٌ في سفح صخر عالٍ يرتفع ارتفاعاً هائلًا بحيث لا يصل الى قمته سوى القشاعم والنسور.

---

١) هذا الدير قائمٌ في لحف جبل ، جنب بلدة بشرّي الشرقي.

ان قسماً كبيراً من هذا الدير مناور صخرية اجتمعت يدُ الصناعة والطبيعة في اتقانها فابرزتها رحبةً جميلة . والمبد مفارةٌ ايضاً كبيرة نظيفة لا يتهيأ للصناعة ان تأتي بابدع منها . من ذلك الصخر تنبجس عينٌ غزيرة صافية تمرُّ في كل محالّ الدير حيث يُحتاج اليها وتنتهي الى بستانٍ حافل بالخضر . لذيذٌ جدًّا السكن في مار سركيس صيفاً . أمّا في الشتاء فيهجرهُ الآباء الكرمليّون بسبب الثلج والبرد القارس ، حيث يصير السكن فيه غير مطاق ، ويهبطون الى طرابلس ويقيمون فيها نحواً من ستة اشهر الى عيد الفصح .

وفي صباح السادس عشر سرنا وهداتنا الى ارز لبنان . وفي الطريق أخاديد فيها بقايا ماء الشتاء الغزير . فشقَّ علينا كثيراً قطعُ المسافة الكائنة بين مار سركيس والارز الذي يبدو للناظر من بعيد .

متّعنا البصر والفكر بذلك الارز ما طاب لنا ، وهو على هضبته الصغيرة ، ومن حوله سهلٌ فسيح ، تحدقُ به جبالٌ عالية تغطّيها الثلوج .

ان هذا الارز الطائر الشهرة في العالم كثير العدد ، والصغير منه والجديد اكثر عدداً من الكبير والقديم . وقد عددتُ من الشجرات الكبيرة الضخمة زهاء اثنتي عشرة ارزة ، وقستُ اكبرها فاذا قطر دائرتها ستُّ باعات . وقد رأينا أنَّ بعضها يتفرَّع بعد ارتفاع الجذع قليلاً عن الارض الى خمس او ست اشجار وانَّ رجلين بالكدّ يحوطانها باذرعهما . واذا تشابكت هذه الاشجار في اعلاها حصل عن تشابكها اتساعٌ مذهل ، بينه وبين الارتفاع مناسبةٌ هندسيّة لطيفة . وقد حفر سيّاحٌ كثيرون اسماءهم في جذوع الارزات الضخمة حيث أحدثوا شقوقاً كبيرةً في ظاهر الجذع ليتسنى لهم الحفر ، فخرجت مائية متحوّلة الى صمغٍ مفيدٍ جدًّا لعصب وضماد الجراح ، وقد امتحنّا ذلك بنفسنا .

وعلى اصول الاشجار الضخمة قامت اربعةُ مذابح من حجر وكل سنة يصعد بطريرك الموارنة ، يوم عيد تجلي السيد المسيح ، الى هناك بموكبٍ عظيم من الاساقفة والكهنة والرهبان ، يتبعهم خمسة او ستة آلاف ماروني يجتمعون من كل ناحية للاحتفال بهذا العيد الذي يدعونه عيد الارز . على انَّ الموارنة ، وان اجتمعوا للاحتفال بالعيد يوم تجلي الرب ، في الارز ، فانهم لا يعتقدون ،

كما يتهمهم بعض المؤرخين بدون سندٍ ، أنَّ السيد تجلّى على هذا الجبل. لانَّ تجليه تمَّ ولا ريب على طور طابور.

والذي حمل هؤلاء المؤرخين على هذا القول انما هو رأي البعض انَّ طور طابور جزءٌ من جبال تُدعى لبنان وما وراء لبنان (انتيلبنان)

أما جبال لبنان هذه فهي التي تمتدُّ من جهة البحر من نبع الاردن او جبل الكرمل الى مسافة يوم او يومين من الشام. اما جبال انتيلبنان (ما وراء لبنان) فهي تمتد اكثر في عرض الارض يفصلها عن جبال لبنان سهلٌ واسع يبتدئ من مسافة يوم او يومين من دمشق الشام الى جهة بعلبك يُدعى البقاع . وقد دُعيت جبال ما وراء لبنان بهذا الاسم لانها إزاء جبال لبنان مطلّةٌ عليها.

أمّا منبتُ الارز فذو هواء باردٍ بحيث يمتنع على احدٍ ان يسكنه ايام الشتاء . غير انَّ موقعه جميل وما فيه من الاعشاب الطبية نادر المثال . أما الطيور فمتنوّعة وكثيرة في ذاك المكان لا تخشى الا الجوارح ، والارض صالحة للزراعة مخصبة ، لكنها مهملة ليس فيها سوى أدغال البربريس ذات الاشواك الحادة الظريفة المنظر.

قد كان لبنان في القديم مغطًى كلّه بالارز . أمّا الآن فليس فيه إلا الارز الذي ذكرناه ، وغابةٌ اخرى في جبلٍ مجاور لقنوبين. لذلك ترى كل مصنوعات النجارة في لبنان من خشب الارز ، وهي ذات دقّةٍ في الصناعة [1] .

---

١) طالع الفصل البديع الذي كتبه حضرة الاب لامنس اليسوعي في كتابه تسريح الابصار مجلد اول ص ١٢٤-١٤٣

(لها صلة)

بقلم الاب لامنس اليسوعي

الكثيرون ان الانكليز لا يكترثون غالباً اكتراثاً شديداً لما يحدث عند سائر الاوربيين . ولهم عذرهم في ذلك ، لان انكلترة جزيرة منفصلة عن مناطق اوربة . اما نحن فلا يمكننا التشبث بعذر الانكليز ، لان بلادنا تشبه جسراً يصل بين القارات الثلاث في العالم القديم ، لانها ممرّ طبيعي يضطر جميع جيراننا الى السير عليه ، بل هي طريق مهمة كما ابان ذلك السيد ميشال شيحا ، في محاضرته النفيسة التي تكلمنا عنها في الشهر الماضي[1] . وعليه فلا يمكننا ان نجهل او نتجاهل ما يحدث عند جيراننا . فهم يؤثرون فينا ، ونحن نؤثر فيهم . وها ان تاريخنا باجمعه برهان واضح على هذا الامر ، يدلنا ان بلادنا نالت في كل عصر فوائد الطريق ، وتحملت مضارها ، وان جدودنا استفادوا من مركزهم النادر منافع توسطهم بين الامم كما قاسوا مساوئ هذا التوسط . فاستثمر الفينيقيون هذا المركز ، فعقدوا الصلات التجارية واستحدثوا المستعمرات . ولكن المركز نفسه جرّ على احفادهم الغزاة والمكتسحين .

واننا ، في هذه الساعات السوداء التي نحياها اليوم ، ووسط هذه الازمة الآخذة بخناق العالم كله ، نرى من دواعي الاعتبار واساليب التعزية ان نلقي نظرة على جيراننا . فنتحقق اننا اخف الجميع ضنكاً واقلهم مقاساة لهذا الضيق العالمي . واننا لا نعني بقولنا تركية وحدها التي كادت تخنقها ازمة

---

(١) اطلب مشرق شباط الماضي ، ص ١١٦-١٢٢